عائدة مع الصيف .. قصة

بقلم يوسف الخطيب

المحفظة الرمادية الصغيرة ، والصندل الابيض، والفستان والزنار ، واشياء اخرى كثيرة ، كأنما تعرقلها في مشيتها ، وهي تريد ان تتخلص منهـا في اقرب وقت ممكن .. ربما كان ذلك بعد شهر او اكثر ، حين تقبض اول راتب لها في الكويت ..

وكانت وهي تسير باتجاه بيتها في الحي القديم ، تتملى بعينيها النهمتين كل ما في الواجهات من ازياء الفصول الاربعة ، وكل ما عند الحذائين من صنادل انيقة ، وكل ما في معارض الموبيليا من اثاث وفرش حديثين .. والواقع انها كانت في تلك اللحظة بالذات بالغة النهم ، تتمنى لو ان جنود سليمان دثروا بيتهـا في الحي القديم ، واقاموا مكانه قصر علاء الدين ، بقبابه الزرق ، وشرفاته الفضية ، وبكل ما فيه من سجاد وطيلسان ، واباريق ذهبية وارائك مصدفة .. وهي اذ تصور في خيالها كل هذه الصور ، فأن قلبهـا كان يرف بالنشوة والسلام ، لأن بعض احلامها الدافئة التي ترتسم لها في النوم واليقظة ، والتي لازمت اهدابهـا منذ عهد الصبا الباكر ، سوف يتحقق في امد ليس بالبعيد ...

على ان نهـاد ما كانت تغيب كثيراً في تصور قصر علاء الدين .. كان شرودها الى لحظات ، ومن ثم كانت تدفع خصلة الشعر التي تهدلت على عينيها ، وتواصل السير باتجاه بيتها في الحي القديم .

فأذا مر عن يمينها او شمالها الفتيات الانيقات برفقة ازواجهن او اصدقائهن، ولفحت انفها روائح الورد والليمون من مناديلهن ، اعتذرت لنفسها بانها فتاة مثقفة ، لا يجدر بها ان تهتم كثيراً بهذه الاشياء التافهة التي هي من خصائص الفتيات الفارغات ... ان الثقافة في رأيها هي افضل ما يمكن ان تتزين به الفتـاة ، ولكن الذي يحز في نفسها ان الشباب لا يقدرون هذه الزينة حق قدرها ..

ودفعت من جديد خصلة الشعر الذهبية التي عادت فتدلت على عينيها ، كما لو كانت هذه الخصلة تتعمد انسدالها الشاعري اللطيف على مقلتي نهاد ، حتى تحجب عنها كل مرئيات الشارع الضيق الطويل ، وحتى تستحيل كل حقـائق الارض من خلال نسيجها الذهبي الى خيالات حلوة .

يا لك ايتها المعلمة الصغيرة ، أليس جميلاً ان تنتصري هكذا على الفقر والحاجة .. ودق قلبها .

— غداً سأركب الهواء ، واطير الى الكويت ..

كانت تشعر بفيض غامر من السعادة .

وادارت يدها الى محفظتها الرمادية الصغيرة ، فأخرجت منها ورقتين او ثلاث ورقات جمعت الى بعضها بدبوس ، وبعد ان تصفحتها برفق وعناية ، وتحققت من الاختام الرسمية عليها ، ارجعتها الى المحفظة وأحكمت إغلاقها .. ولعل بائع الهريسة الذي ابصرها آنذاك تخرج الاوراق وترجعها الى المحفظة، ذهب به الظن الى انها رسائل غرامية ، فدفع طاقيته السوداء حتى استقرت على حاجبيه ، وأخذ يحك رأسه بشدة .. ولكن ما ان ازدحم الصبية على صينيته حتى ثاب الى رشده ، وكانت نهـاد قد توارت عنه في الشارع الضيق الطويل .. بين مئات الحمير ، والدراجات والآدميين ..

كان عليها ان تسرع في مشيتها لكي تصل الى البيت مبكرة ، فأن امها بانتظارها هناك وكذلك سعيد .. اخوها الاعرج المسكين .

وفيما هي جادة في السير ، كانت تطبع في ذهنهـا صورة بليدة لشوارع القدس القديمة ، بمآذنها وصلبانها العائمة في الهواء .. لقد تعودت هذا المنظر. وهي مشغولة عنه باشياء اخرى تملأ خيالها ..

- مساء الخير آنسة ..

فالتفتت ، وكانت التحية من اجلها .

— انت ؟ . مساء الخير .

وانتحى بها الى الرصيف ليغيب معها في حديث قصير .

— لعلك وفقت مع الاستاذ ؟

— اشكرك . لقد انتهى كل شيء ، وهذه هي اوراق التعاقد ..

واشارت بيدها الى المحفظة ، وكادت تفتحها لولا انه وفر عليهـا ذلك بسؤاله المقتضب القصير :

— والسفر ؟

— غداً .. وانت ؟

— في الاسبوع القادم ان شاء الله .

— جميل .. إذن سنلتقي هناك كثيراً .

— طبعاً .

— طيب .. استأذن . علي ان اصل البيت مبكر

— في حفظ الله ، ارجو ان اراك في الكويت .

وسار كل منهما في وجهته . على ان نهاد .. كأنما استولت عليها جملةابراهيم الاخيرة ، فأخذت تحللها وتقلبها على وجوهها، وتستحلب من احرفها وكلماتها اعذب الامـاني وأنداها : ارجو ان اراك في الكويت ! أهو في الواقع يرجو ذلك ، ام انها كلمة قيلت في مناسبتها ، ونزلت بامانة في قالبها .. يرجو ان يراني .. ما اجمل كلمة الرجاء هذه . ولعل الكلمة التالية اعذب منهـا وقعاً .. أراك ..

وكأن كل افكارها وخيالاتها التي كانت موزعة قبل قليل ، على الواجهات ومعارض الاحذية والموبيليا، قد تجمعت مرة واحدة في ابراهيم ... في قامته، وجبهته العريضة ، وعينيه اللامعتين بالصفاء ، وشعره الجعد القصير ، وأنفه المستقيم .. وحتى شفتيه الغليظتين ..

— ما ألطف ابراهيم .

واخذت تستعرض لطفه خلال سنة كاملة قضياها معاً معلمين في القرية .. لم تكن مدرسة الاناث بعيدة عن مدرسة الذكور ، وكان يتسنى لهما ان يحيي احدهما الآخر بابتسامة رقيقـة ، وان يختلس منه بعض الكلمـات في الظروف المواتية .

وشعرت نهاد ، وهي تقترب من بيتها ان ابراهيم يمكن ان يكون له شأن آخر في حياتها ..

وعندما دفعت الباب ، طالعها وجه امها الشاحب ، وقد جلست وحيدة في ردهة البيت ، في الزاوية نفسها التي تصلي فيها ، وعلى السجادة القديمة المهترئة

نفسها ، وفي يدها المسبحة المنظومة من نوى الزيتون .. كانت تبكي وعلى شفتيها المرتجفتين صلاة خافتة .

– ما ارهف قلوب الفقراء .

واندفعت الفتاة حتى استقرت بين ذراعي امها ، فملأت حضنها ، وجعلت ساعديها حول عنقها ، واختلط الشعر الاشقر بالشعر الابيض ، وتماوج النهدان الشابان على النهدين الذابلين ، وكان يدفق في الصدرين دم حار . ففي اليوم التالي لن يكون بأمكان الخدين الملتحمين الآن ان يلتحما مرة ثانية بمثل هذه القوة والحرارة..ستبقى الوالدة العجوز وحيدة هكذا ، لا يؤنس وحشتها إلا سعيد .. ابنها الاعرج الذي يقضي كامل نهاره في زاوية البيت ، على فراشه الذي لا يطوى،يطالع ما يعثر عليه من الكتب والمجلات الملونة..

سعيد يؤنس وحشتها ! وهل بامكانه إلا ان يزيد حسرتها وتفجعها،ويوقظ في قلبها الكبير اعنف هزات الالم ؟

وسعيد ، برغم ثقته الكبيرة باخته ، لم يكن راضياً عن سفرها البعيد الى الكويت .. وحين تبادر الى سمعه نشيج امه واخته خارج الغرفة ، تململ فوق فراشه . وحدق بعينيه الذابلتين ، وارتجفت شفتاه ليقول شيئاً ، ولكنه عاد الى وضعه الاول واطبق شفتيه على هزيمة بشعة .. ماذا عساه يقول ؟! هل يعترض في اللحظة الاخيرة .. من هو حتى يعترض ، وأين رجولته التي تنفذ ارادته .. أليس عالة على امه واخته منذ خمس سنوات .. أليست نهاد هي التي تنفق عليه ... وهذه المجلات والكتب .. هذا الرغيف ، هذه القطعة من الجبن .. عكازته تلك ، وقميصه ذاك .. من اين كان يمكن له ان يحصل عليها لولا نهاد ؟

أحس بدوار شديد ، وكاد يتقيأ ، وملأت مسامه رائحة الدخان الرخيص الذي تكاثفت سحاباته في الغرفة .. ثم تمتم وهو ينقلب على جنبه الآخر :

– يجدر بي ان اخرس ، ان اسد فمي .

وابصر مصباح الغاز تلك الامسية ، خاملاً كئيباً ، وأحس في نفسه ضيقاً واختناقاً فلم يقو على شيء إلا ان انقلب على بطنه ودفن رأسه في وسادته ..

ليت نهاد تسأله عما به ، اذن لحدثها عن نفسه،وعنها ، وعن امها العجوز، وعن هذا الفراق الذي يخشى كل ثانية من ثوانيه . ولكن نهاد ما كانت لتسأله عن شيء ، فهي مشغولة عنه بترتيب ثيابها وحاجياتها ، واختيار الكتب القليلة التي ستأخذها معها .. ولعل الوالدة العجوز انتبهت اليه في تلك الاثناء ، فنهضت متثاقلة ، واخذت مكانها على فراشه ، ثم اخرجت سبحتها الطويلة السوداء ، وجعلت تعد حباتها في خشوع وأناة على ذكر الانبياء والصالحين، كأنها بذلك تستجمع كل قوى الخير ، وتستحضر الملائكة من سماواتهم ليرافقوا ابنتها ويحرسوها في غربتها الطويلة .. وبعد ان فرغت من نصف حبات المسبحة ، وعينا سعيد معلقتان بها ، التفتت اليه وقد طفح وجهها بالبشر والاطمئنان .

– ماذا قالت لك المسبحة ؟

فتجهم وجه الام حين استشعرت سخرية ابنها في سؤاله الجاف ، واجابته في شرود :

– خير يا سعيد .. ان شاء الله خير ..

وعندما دخلت عليها نهاد ، كانت قد فرغت من حزم حاجياتها.. ونظرت الى سعيد وعلى فمها الصغير ابتسامة ناعمة لعلها ابتسامة الظفر ، او الكبرياء ، او التحدي؛ ولم يكن في وسعه ان يتصورها ابتسامة الحب الذي يغمر قلبين اخوين . بل ، لم يكن بوده ان يتصور نهاد رحيمة به هكذا ، محبة له هكذا تحله المحل الاول في قلبها .

واخيراً رد عليها بابتسامة حزينة خجلة ، ودعاها للجلوس بقربه فجلست وهي تغالب الدموع بابتسامتها الصغيرة الوادعه .

أيحزنك يا سعيد انني مسافرة الى الكويت ؟

– وكيف لا يحزنني ذلك .. ألست اختي الوحيدة !

– ولكني عائدة مع الصيف القادم. واعتقد ان حالتنا آنذاك ستكون اسعد منها الآن ...

– طبعاً ، سيكون راتبك ضخماً كما تمت .

– وسوف ابعث لك شهرياً بنصفه .

– أليس كثيراً علي النصف !

لك ولأمي طبعاً . اياك ان تضحك عليها في القسمة !

واعقبت دعابتها هذه بضحكة عذبة ، لتضفي شيئاً من الحياة على الامسية الكئيبة.. وضحكوا ثلاثتهم. على ان سعيد كان بوده ان يسألها عمن سينفق عليه وعلى امه بعد زواجها مثلا،اذا تيسر لها ذلك في وقت ما ، ولكنه تذكر انها ليلة الوداع فخنق سؤاله في صدره .

وفي صبيحة اليوم التالي كان الثلاثة يجلسون في مقهى المطار ، وكانت اللحظات الاخيرة من اجتماعهم قاسية وعنيفة ، ولم يصدق سعيد شيئاً مما سمعه ورآه ، حين صاح موظف الجوازات :

– نهاد سالم .

وحين قبلته اخته بسرعة وارتباك واخذت طريقها الى سلم الطائرة .

لقد كانت امه اسعد منه حظاً،فقد استطاعت ان تقف على رجليها وتجري وراء ابنتها بضع خطوات ، ولولا ان الموظف سد عليها الطريق بساعديه ، لاستطاعت ان تخطف قبلة ثانية من وجنة نهاد. اما هو فظل في مكانه كالتمثال المشوه ، يغالب اللحظات بشعور خليط من الحب والالم . وحين انفض محرك الطائرة ، كان يبكي بكاء شديداً ، ويحاول النهوض فلا يقوى عليه . واخيراً وقع عن كرسيه واخذ يزحف ويزحف على رصيف المقهى ، ويلوح بيديه ويصيح بصوته الذي خنقه النشيج :

– نهاد .. ارجعي يا نهاد .

ولكن هدير المحرك كان صاخباً وشديداً ..

رام الله **يوسف الخطيب**

لم تبق غير نسخ محدودة من الكتاب الذي ضرب الرقم القياسي في الرواج

ادفع دولاراً تقتل عربياً

للاستاذ لورانس عزيزوولد

كتاب خطير يتحدث فيه المؤلف عن مذبحة دير ياسين وعن زيارته الى الجبهات العربية أثناء الحرب الفلسطينية والبحرين والعراق والكويت وسورية ومصر والسودان .

الثمن ليرة ونصف **دار العلم للملايين**